الدرس الثالث والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ..

أمّا بعد..

يقول الحافظ المنذري - رحمه الله - في كتابه كفاية المتعبّد وتحفة المتزهد..

[وروى البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمر رجلا إذا أخذ مضجعه من الليل أن يقول اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك و ألجأت ظهري إليك و فوضت أمري إليك رغبة و رهبة إليك لا ملجأ ولا منجى إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت و برسولك الذي أرسلت فإن مات ، مات على الفطرة» وروي بنبيك متفق عليه]

الشرح..

هذا الحديث حديث البراء رضي الله عنه فيما يقال عند النوم وإذا أخذ العبد مضجعه – أي لينام – وهو دعاء عظيم مأثور عن النبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه ينبغي أن يحرص عليه المسلم كل ليلة إذا أوى إلى فراشه لينام ، وقد اشتمل هذا الحديث كما في بعض رواياته على بعض الآداب التي يستحب للمسلم أن يأتي بها إذا أوى إلى فراشه ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أتيت مضجعك ، توضأ وضوئك للصلاة ثم نم على شقك الأيمن » ، فأرشد عليه الصلاة و السلام إلى أدبين عظيمين من أداب النوم : أن ينام المرء على طهارة وهذه أكمل ما يكون في حال المسلم عندما ينام ، و الأمر الثاني أن ينام على شقه الأيمن وهذه أكمل صفة للنوم أن ينام المرء على شقه الأيمن ثم يأتي بهذه الدعوات وغيرها مما يؤثر عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه

قوله " اللهم أسلمت نفسي إليك " .. فيه استسلام العبد لله تبارك وتعالى ، و إسلام أمره له جلّ في علاه، وإقراره أن أمره بتدبير الله وتسخيره وبمشيئته وإذنه جلّ وعلا ، " أسلمت نفسي إليك " مقرا بأني عبد من عبادك وطوع تدبيرك و تسخيرك لا حول لي ولا قوة إلا بك

وقوله " ووجهت وجهي إليك " .. هذا فيه إخلاص العبد لله سبحانه وتعالى ، "وجهت وجهي إليك" أي مخلصا لا أبتغي بتوجهي إلا وجهك ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ ،

" وجهت وجهي إليك " أي مخلصا لك ، لا أبتغي بتوجهي إلا وجهك مخلصا لك

وقوله " ألجأت ظهري إليك " .. أي أسندته إلى حفظك ؛ وهذا التجاء وتفويض إلى الله سبحانه وتعالى،

وقوله " وفوضت أمري إليك " .. هذه كلمة توكل واعتماد على الله " فوَّضت أمري إليك" و ما الأمر المفوض هنا إلى الله سبحانه و تعالى ؟ لعلنا نذكر قاعدة أهل العلم في هذا الباب أن المفرد إذا أضيف يفيد العموم

فقوله " فوضت أمري " أي جميع أموري ، لا أستثني شيئا منها إليك يا الله ، فهذه كلمة تفويض و توكل على الله سبحانه وتعالى

وقوله " رغبة و رهبة إليك " .. أي أقول ذلك جامعا فيه بين الرغبة والرهبة ، و الرجاء و الخوف و هذه حال المسلم في كل تعبداته ﴿ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَ رَهَبًا ﴾ ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُم أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخَافُونَ عَذَابَه ﴾ فالمسلم في أعماله بين الرجاء والخوف ، والرغبة والرهبة

الرغبة : أي فيما عند الله والطمع في نواله والفوز برضاه سبحانه و تعالى،

و الرهبة : هي الخوف منه سبحانه وتعالى ومن سخطه ومن أن يرد العمل على العبد ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهم إِلَى رَبِّهِم رَاجِعُون ﴾ وجلة : أي خائفة أن لا تقبل أعمالهم منهم ، ولهذا ينبغي أن يكون العبد في دعائه وفي كل عباداته بين الرجاء والخوف ، والرغبة والرهبة

وقوله " لا ملجأ و لا منجى إلا إليك " .. هذا فيه أن العبد لا مفر له من الله إلا إلى الله ، وكل شيء يخاف العبد منه يفر منه إلا الله سبحانه وتعالى فإن الخوف منه يوجب الفرار إليه ، كما قال الله عز وجل ﴿ فَفِرُّوا إِلَى الله ﴾ ، فالعبد إذا خاف من ربه فرَّ إلى ربه ، لأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، لا ملجأ ولا منجى إلا إليه ، فالملجأ إلى الله والمنجى إليه سبحانه تعالى ، ملجأ العبد في كل ما يؤمله ويرجوه ، و منجى العبد من كل ما يحاذره و يخشاه إلى الله سبحانه وتعالى

وقوله " آمنت بكتابك الذي أنزلت " .. أي القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، و أنه وحي الله وتنزيله جل في علاه ، آمنت به وبما اشتمل عليه من الهدى والخير والإيمان والصلاح

" آمنت بكتابك الذي أنزلت و برسولك الذي أرسلت قال وروي بنبيك " والذي جاء في الرواية هو قوله " وبنبيك الذي أرسلت" ولما قاله البراء رضي الله عنه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم مستذكرا " قال و برسولك الذي أرسلت فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا ؛ و بنبيك الذي أرسلت "

" وبنبيك " أي محمد عليه الصلاة والسلام الذي أرسلت ؛ أي إلى الثقلين بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ،

فاجتمع في قوله " وبكتابك الذي أنزلت و بنبيك الذي أرسلت " الإيمان بالوحي المنزل ، والإيمان بالرسول المبعوث بهذا الوحي ، لأن حكمة الله سبحانه وتعالى اقتضت في وحيه أن لا ينزل على كل العباد وإنما يصطفي منهم خيرهم وأفضلهم ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاس ﴾ ، ثم يبعثهم إلى الناس بوحيه ﴿ وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَاغُوت ﴾ ، ففي قوله " و بكتابك الذي أنزلت و بنبيك الذي أرسلت " إيمان بالوحي المنزَّل وبالمبعوث بهذا الوحي و أنه مبلغ عن الله ﴿ لَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى ۞ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

قال " فإن مات ، مات على الفطرة " .. أي من قال ذلك إن ماتْ ماتَ على الفطرة ، إن مات من ليلته تلك ، وهذا يفيدنا أن القول لهذه الكلمات لا ينبغي أن يكون قولاً مجردا باللسان ؛ لأن الفطرة أمر يلامس القلب – قلب المرء – ، ولهذا فإن من يقول هذه الدعوات ينبغي أن يقولها مستحضرا المعنى الذي دلت عليه محققا ما دلت عليه من إيمان وتوكل وتوحيد و تفويض وإيمان بالله وكتبه ورسله ، فإذا قال ذلك عن فهم و إيمان ومات من ليلته مات على الفطرة ، ومما يستفاد من ذلك أن المرء ينبغي أن يواظب عليه كل ليلة ، ولا يفوته في أي ليلة ، يحرص على ذلك حتى يكون من أهل هذه الفطرة والموت عليها ، وإن كتب الله له حياة فلم يمت من ليلته أصاب خيرا ، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث ، قال« وإن أصبحت أصبت خيرا» فيكون أيضا من فوائد هذا الدعاء العظيم أنه بركة عليك في يومك إذا أصبحت من أسباب البركة و أن تصيب في يومك خيرا، وقوله " خيرا " جاءت نكرة في هذا السياق فتفيد العموم ، وهي متناولة خير الدين و خير الدنيا ، ومن فوائد هذا الدعاء أهمية التقيد بالدعوات المأثورة عن النبي صلى الله عليه و سلم بحسب ألفاظها الواردة لا يغير في ألفاظها شيئا ولا يزيد على ألفاظها شيئا ، و لا يجعل لفظا مكان لفظ أو كلمة مكان كلمة ، حتى وإن استحسن ذلك ، بل يحرص على حفظها بألفاظها الواردة عن النبي الكريم صلوات الله و سلامه بركاته عليه ، فإن البراء رضي الله عنه لما استذكر هذا الدعاء بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قال وبرسولك الذي أرسلت فقال له النبي عليه الصلاة والسلام« لا وبنبيك الذي أرسلت» فأفاد ذلك أهمية التقيد بالألفاظ المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى و إن استحسن المرء لفظا أو نحو ذلك فليس له أن يبدل أو يغير في ما جاء عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام و لا أيضا أن يزيد عليه ، لأن الزيادة عليه نوع من الاستدراك على النبي عليه الصلاة والسلام في دعواته المأثورة عنه ، فينبغي تجنب ذلك ، وأن يحرص على دعوات النبي عليه الصلاة و السلام كما وردت عنه ، ودعواته عليه الصلاة والسلام جمعت بين العصمة من الخطأ والكمال في

المعاني ، حيث تضمنت أكمل المطالب وأجلّ المقاصد و أنبلها على الإطلاق ، وهذا كله مما يؤكد أهمية العناية بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد عنه دون أن يزاد فيه أو ينقص .

[وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، « أنه أمر رجلا إذا أخذ مضجعه أن يقول: اللهم خلقت نفسي و أنت تتوفاها ، لك مماتها ومحياها ، إن أحييتها فاحفظها ، وإن أمتها فاغفر لها ، اللهم إني أسألك العافية » ، فقال له رجل أسمعت هذا من عمر، قال من خير من عمر، من رسول الله صلى الله عليه وسلم، انفرد به مسلم]

الشرح..

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث " عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر رجلا إذا أخذ مضجعه أن يقول اللهم خلقت نفسي و أنت تتوفاها " .. هذا يفيدنا أن الدعوات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم جاءت متنوعة ، بل كما أشار الإمام ابن القيم رحمة الله عليه في أحد كتبه " أن الأحاديث التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم في أذكار النوم والدعوات التي تقال عندما يأوي المرء إلى فراشه تقرُب من الأربعين حديثا " ، و قد لا يتيسر للمسلم جمع ذلك كله لكنه ينبغي أن يحرص أشد الحرص على الإتيان بما تيسر له من الدعوات و الأذكار و الآيات أيضا القرآنية مثل آية الكرسي ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتين ، قل يا أيها الكافرون ، يحرص على المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، والإتيان بما تيسر له من ذلك

قال " إذا أخذ مضجعه أن يقول اللهم خلقت نفسي و أنت تتوفاها " ..

" اللهم خلقت نفسي " : أي أوجدت نفسي من العدم وخلقتني بعد أن لم أكن ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ ، " خلقت نفسي " إقرار من العبد بأنه

مخلوق لله ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أوجده وهو الذي خلقه وهو الذي أمده بالعافية و الصحة والقوة

"خلقت نفسي وأنت تتوفاها " .. أي وفاتي بيدك

" لك مماتها ومحياها " .. " مماتها " أي نفسي لك مماتها ومحياها ؛ أي أمر مماتي ومحياي بيدك ، " لك مماتها ومحياها " أي أنت المتصرف ، أو أن يكون المعنى والمراد هو قصد العبد بأن جعل مماته و محياه لله كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾

قال " فاحفظها " .. ما سبق وسيلة وهذا مطلوب ، المطلوب الحفظ

" فاحفظها و إن أمتها فاغفر لها " .. فاحفظها أي بما تحفظ به عبادك الصالحين،

" وإن أمتها فاغفر لها " وهذا ينبني على استشعار من العبد حينما يأوي إلى فراشه لينام أنه في هذه النومة لا يخلو من حالتين : إما أن تقبض روحه في منامه أو أن يفسح الله له في الأجل فينهض من منامه ، لا يخلو من هاتين الحالتين ، فيستشعر العبد الحالتين فيدعوا الله بدعوة تناسب الحالتين، حالة أن يفسح في الأجل قال : "فاحفظها" وحالة أن تقبض الروح في هذا الفراش وفي هذه النومة ،

قال " فاغفر لها اللهم إني اسألك العافية " .. وسؤال الله تبارك وتعالى العافية من أعظم المطالب و أجلها ، قد جاء في الحديث أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنه وعن الصحابة أجمعين أتى النبي عليه الصلاة و السلام وقال : علمني دعاء أدعو الله به ، قال: « سل الله العافية» ، – فكأنه تقالّ ذلك – وجاء بعدها مرة أخرى إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال علمني دعاء أدعو الله به ،

قال« يا عباس يا عم رسول الله سلِ الله العافية في الدنيا والآخرة » .. أعاد عليه الدعوة نفسها ، فسؤال الله العافية هذا من أعظم المطالب وأجلها ، وإذا أوتي العبد العافية في دينه ودنياه وأخراه فاز الفوز العظيم و تحققت له النجاة بإذن الله سبحانه وتعالى

" فقال له رجل " – أي قال لابن عمر– " أسمعت هذا من عمر" هل هذا الدعاء سمعته من عمر فقال رضي الله عنه : " من خير من عمر ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

[وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال : «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا و كفانا و آوانا فكم ممن لا كافي له و لا مؤوي» انفرد به مسلم]

الشرح..

ثم ختم رحمه الله تعالى بهذا الحديث ، حديث أنس رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه، قال الحمد لله الذي أطعمنا و سقانا وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافي له، ولا مؤوي " هذا الحديث فيه ذكر نعمة الله على عبده ، وحمده جل وعلا عليها

هنا معاشر الكرام ينبغي أن نعلم في ضوء هذا الحديث و الحديث الذي قبله أن المرء إذا أوى إلى فراشه لينام ينبغي أن ينظر نظرين ..

• نظرٌ إلى ما مر من وقته ومضى من أيامه في صحة وعافية و طعام وشراب و غذاء ومأوى وفراش و غير ذلك ، ينظر إلى ما سبق من وقته فيذكر نعمة الله عليه في ما سبق من صحة وعافية وطعام وشراب و مسكن وغير ذلك ؛ فيحمد الله لا ينام إلا وهو حامد لله ، طعِم وشرب وعنده المسكن وعنده الملبس يذكر هذه النعم فيحمد الله عليه " الحمد لله الذي أطعمنا و سقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي " ، إن كنت أنام شبع فغيري قد ينام جائع طاويا ، وإن كنت أنام في مأوى مرتاحا فيه وفي فراش طيب غيري قد لا يجد فراشا يأوي إليه أو مكانا يرتاح فيه ، فيذكر هذه النعمة و يحمد الله ينام حامدا لله على نعمه والحمد حافظ وجالب ، حافظ للنعمة الموجودة و جالب للنعمة المفقودة ، والله يقول ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرْتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد﴾ فحمدك لله ؛ وهذا الحمد عند نومك " الحمد لله

الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي " من موجبات ثبات هذه النعمة و بقائها وزيادتها ونمائها ، فينبغي للعبد أن لا يفوّت هذا الحمد العظيم عندما يأوي إلى فراشه لينام " الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا و كفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له و لا مؤوي " تذْكر نعمة الله عليك بالمطعم والمشرب و الكفاية و المأوى وأنه كم من إنسان قد لا يجد ذلك و قد لا يتيسر له ذلك ، فتحمد الله جل وعلا

• النظر الثاني نظر إلى المستقبل.. كما في حديث ابن عمر فيه نظر إلى المستقبل ماذا ستكون حالي ، أنا سأنام الآن ماذا ستكون حالي في النوم ، احتمال تقبض روحي واحتمال أن يفسح لي في الأجل ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيهَا المَوتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى ﴾ هذه أرواح العباد هذه حالهم في النوم ، قد تمسك روح العبد ويصبح بين يدي أهله ميتا على فراشه وهذا لا يختص في الكبار بل يشمل الكبار والصغار و الأطفال – ويحصل هذا كثيرا في بيوتات الناس– فقد تقبض روحه وقد يفسح له في الأجل ، يذكر ذلك قبل أن ينام فيدعوا الله بدعاء يناسب الحالتين ، حالة القبض وحالة الإرسال « إن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » كما جاء في الدعاء الآخر فيدعو بدعوة تناسب الحالتين ، الحاصل أن الدعوات المأثورة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بالنوم ..

منها ذكر لله وثناء وتمجيد .. ومنها إقرار بأصول الإيمان وعقائد الدين بحيث يموت على ذلك فيموت على الفطرة .. ومنها ذكر لنعمة الله سبحانه وتعالى على العبد بالمطعم والمشرب فيما مضى والمسكن فيما مضى من وقته فيحمد الله على النعمة .. ومنها دعوات تتعلق بنظرة الإنسان لحاله في هذه النومة هل تقبض فيها روحه أو ترسل فيدعو الله سبحانه وتعالى إن قبضت بأن يرحمه الله ويغفر له و إن أرسلت روحه أن يحفظه بما يحفظ به عباده الصالحين .

سبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللَّهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه ..